مجلة جامعة الملك سعود، م ٧، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (١)، ص ص١٠٥-١٣٢، الرياض (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

العمليات العقلية في القرآن الكريم ودلالاتها التربوية

عبدالرحمن صالح عبدالله

أستاذ مشارك، قسم المناهج وطرق التدريس، جامعة السلطان قابوس، مسقط، سلطنة عمان

ملخص البحث. الإنسان كائن متفرد، ومع أنه يشترك مع غيره من المخلوقات في بعض الخصائص إلا أنه يمتاز عنها بأمور عديدة يأتي في مقدمتها العقل. لذا فإن الهدف الأساس لهذه الدراسة هو تقصي العمليات العقلية التي أشارت إليها الآيات القرآنية الكريمة واستخلاص الدلالات التربوية المترتبة على ذلك. ولتحقيق هذا الهدف استخدمت الطريقة التحليلية التي تقوم على البحث عن معاني الألفاظ التي تدل على العمليات العقلية من مصادرها الأولية.

خلصت الدراسة إلى أن القرآن الكريم حدد معالم ثماني عمليات عقلية هي: الإدراك الحسي، والإدراك المعنوي، والتذكر، والقياس، والاستقراء، والاستنباط، والتقويم، والتفكر. وهذه العمليات مرتبة ترتيبًا هرميًا، أي أن الإدراك الحسي الذي يشكل قاعدة الهرم هو أساس العمليات العقلية؛ وأن التفكر الذي يحتل قمة الهرم هو أعلى العمليات العقلية مرتبة. ولا يصل إلى هذا المستوى السامق إلا الإنسان المؤمن الذي يخشى ربه، ويتخذ من عالم الشهادة جسرًا ينقله إلى عالم الغيب. وواجب التربية أن تعنى بالعقل، وأن توظف المنهاج التربوي لتنمية التفكير في مراحل التعليم كلها.

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد... فقد كرَّم الله سبحانه وتعالى الإنسان وفضَّله على غيره من المخلوقات بأمور عديدة منها العقل. وتستخدم هذه الكلمة في اللغة للدلالة على معان عديدة: منها التثبت من الأمر والابتعاد عن التورط في المهالك، ومنها أيضًا الحبس والمنع؛ إذ يقال: اعتقل اللسان إذا حُبس ومُنع الكلام [١، جـ١١، ص ص٤٥٨-٤٥٩]. ولم ترد كلمة

عقل في القرآن الكريم اسمًا ولا مصدرًا ولا مشتقًا ولا فعل أمر؛ ولعل هذا هو الذي جعل المستشرق غرديه يصرح بأن هذه الكلمة ليست من مصطلحات القرآن الكريم [٢، جـ٢، ص٩٧]. وهذه النتيجة غير صحيحة؛ لأن القرآن الكريم تضمن آيات ورد فيها الفعل الماضي عقل والفعل المضارع يعقل. فقد ورد الفعل الماضي عقل في آية واحدة، وورد الفعل المضارع يعقل في ثمان وأربعين آية منها: آية واحدة ذكرت فيها كلمة نعقل، وآية أخرى ذكرت فيها كلمة يعقلها، واثنتان وعشرون آية ذكرت فيها كلمة يعقلون، وأربع وعشرون آية ذكرت فيها كلمة تعقلون. فما ورد في القرآن الكريم هو صيغة الفعل عقل، نعقل، يعقل في الماضي والمضارع في صيغة المفرد والجمع [٣، ص١٥]، والقرآن الكريم الذي لم يكن من بين مفرداته كلمة العقل يمتدح أصحاب العقول ويعلي من منزلتهم، في الوقت الذي يسفّه فيه من لا يعقلون. فأولو الألباب هم القادرون على إدراك آيات الله، وعلى الاعتبار بما حدث للأمم السابقة.

أولاً: تحديد موضوع الدراسة وأهدافها

تبحث الدراسة الحالية في العمليات العقلية التي وردت في القرآن الكريم؛ وهي غير معنية بالبحث في طبيعة العقل ولا بالطريقة التي يرتبط بها العقل بالجسم. لذا فإن هذه الدراسة لا تناقش النظريات الفلسفية التي تعتبر الجسم مظهرًا عقليًّا، ولا تلك التي تعتبر العقل سلوكًا جسميًّا، أو التي تنظر إلى كل منهما على أنه موازٍ للآخر. فمحور الاهتمام في هذه الدراسة الوظائف التي يقوم بها العقل لا كنهه وطبيعته. وهذا الاتجاه في تحديد موضوع الدراسة مستمد من التوجيهات القرآنية. فالقرآن الكريم لم يتحدث عن ماهية العقل، بل تحدث عن أصحاب العقول الذين يتعاملون بذكاء مع ما يحيط بهم؛ وفي هذا دلالة واضحة على عناية القرآن الكريم بالعمليات العقلية التي يقوم بها أصحاب العقول. وهذا ما يميز النهج القرآني عن الفلسفات التي ضيعت وقتها وجهدها في البحث عن جوهر العقل. لذا كان هذا البحث الذي يهدف إلى تقصي العمليات العقلية التي تضمنتها الآيات القرآنية والدلالات التربوية المترتبة على ذلك. ولعل من المفيد أن يشار هنا إلى أن علماء النفس المعاصرين الذين عنوا بقياس الذكاء نهجوا طريقاً مشابهاً في جوهره للنهج القرآني؛ إذ أسقطوا من دراساتهم البحث عن جوهر الذكاء، وركزوا على الوظائف أو الأداء الذي يتميز به الإنسان الذكي.

تهدف الدراسة الحالية إلى تحديد العمليات العقلية التي وردت في القرآن الكريم ومعرفة خصائص كل منها وإيجاد تنظيم يوضح علاقة هذه العمليات ببعضها الآخر. ويؤمل أن تجيب الدراسة عن الأسئلة التالية:

١ ـ ما العمليات العقلية التي أشار إليها القرآن الكريم؟

٢ ـ ما المجال الذي تتعلق به كل من هذه العمليات العقلية؟

٣ ـ من القادرون على القيام بكل من هذه العمليات العقلية؟

٤ ـ هل يمكن ترتيب هذه العمليات ترتيبًا هرميًّا بحيث تحتل أكثر هذه العمليات شيوعًا قاعدة الهرم وتحتل أرفعها مكانة قمة الهرم؟

ثانيًا: منهجية البحث

يستخدم في الدراسة الحالية المنهج التحليلي الذي يقوم على تقصي معاني المصطلحات من مصادرها الأساسية. فقد تم أولاً تحديد الأفعال التي تدل على العمليات العقلية، ومن هذه الأفعال: يعقل، يستنبط، يفقه، يفكر، يتذكر، يسمع وينظر. وقد ضبط معنى كل منها بالرجوع إلى بعض كتب التفسير وفي مقدمتها تفسير ابن جرير الطبري. بعد ذلك قام الباحث بوضع الآيات التي تتعلق بعملية عقلية معينة في زمرة واحدة ليكون عنها صورة كلية. وهكـذا أعان التركيب الذي تلا التحليل على تحديد معالم العمليات العقلية التي وردت في القرآن الكريم. ومما يجب التأكيد عليه أن المنهج المتبع قد أقفل الباب أمام تصيد معـانٍ لم تتضمنهـا الآيات القرآنية الكريمة. فالدراسة الحالية لم تلبس العقل القرآني ما اكتشفه علماء النفس المعاصرون وهذا يعني أن القرآن الكريم — لا الدراسات النفسية الحديثة — هو الأساس الذي انطلق منه الباحث في دراسته. فمن الخطأ الجسيم أن يتبنى المربي المسلم نظرية تربوية أو نفسية معاصرة قبل التأكد من صحتها ثم يستشهد بآيات قرآنية يعزز بها موقفه. وليس من الإنصاف في شيء أن يستشهد الباحث المسلم بآية فيغير موضعها أو يُحمل الآيات ما لا تحتمله من أفكار معاصرة. وهذا الاتجاه في البحث لا ينكر إجراء دراسة مقارنة للعمليات العقلية من منظور قرآني ومن منظور علم النفس الحديث، لكنه يؤكد على أهمية استنباط المبادىء الإسلامية من مصادرها الأساسية.

ثالثًا: الدراسات السابقة

يمكن تمييز ثلاث فئات من الدراسات ذات العلاقة بالدراسة الحالية:

الفئـة الأولى: دراسات عنيت بطبيعة العقل والتربية العقلية عند بعض أعلام الفكر التربوي. ومن الأمثلة على ذلك دراسة بعنوان *ابن الجوزي وتربية العقل*، وقد تعرضت هذه الدراسة لمفهوم العقل ومفهوم الذكاء عند ابن الجوزي. وخلصت هذه الدراسة إلى أن ابن الجوزي يربط بين العقل والإيمان، إذ اعتبر إبليس من كبار المغفلين. كما أكد هذا العالم على الجوانب السلوكية للتربية العقلية. إذ اعتبر مقاومة الأهواء والنزوات الشخصية معيارًا يدل على رجحان العقل [٤، ص ص٤٦-٤٧].

الفئـة الثـانية: دراسات عنيت بمكانة العقل في الاسلام وبخاصة في الكتاب والسنة. ومن الأمثلة على ذلـك دراسة بعنوان *الإسلام والعقل على ضوء القرآن الكريم والحديث النبوي*، لصلاح المنجد. وقد بين هذا العالم مكانة العقل في القرآن الكريم ثم في الحديث الشريف. وناقش الأسباب التي جعلت بعض العلماء يضعفون الأحاديث التي تعلي من مكانة العقل. ثم استشهد أخيراً ببعض أقوال الصحابة والتابعين في العقل. وقد خلص في النهاية إلى أن الإسلام أعطى العقل مكانة رفيعة. وقد أوضح أن مغالاة المعتزلة في إعلاء مكانة العقل أدت إلى حدوث رد فعل عند المحدثين، وهذا ما جعلهم يرفضون كل حديث نبوي في العقل. لذا فإنه يطالب المسلمين في نهاية البحث بالتمسك بالعقل وفهم دوره على ضوء ما ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف [٣، ص ص٥٩-٦٠].

الفئة الثالثة: دراسات عنيت ببعض العمليات العقلية. وأحدث هذه الدراسات دراسة لعالم النفس المسلم مالك بدري، وتمت هذه الدراسة بدعم من المعهد العالمي للفكر الإسـلامي بواشنـطون؛ وهي بعنـوان: *التفكـر من المشاهدة إلى الشهود: دراسة نفسية إسـلامية*. وقد ناقش الباحث أولاً موضوع التفكر من منظور علم النفس الحديث، ثم بحث بعد ذلك في طبيعة التفكر من منظور قرآني، فبين الأساليب القرآنية التي تحث على التفكر ثم شرح تباين الأفراد في القدرة على التفكر.

ومن العـوامـل التي تؤدي إلى ظهور فروق فردية في هذا المجال: الحالة العقلية،

والمعرفة، والقدوة الصالحة، والإلفة. وقد أقام الباحث في نهاية البحث جسرًا يصل عبادة التفكر بالبحث العلمي. فدعوة القرآن الكريم الإنسان إلى التفكر في مخلوقات الله تمهد الطريق أمام تقدم العلم؛ فالتقدم العلمي الذي أحرزه المسلمون كان نتيجة مباشرة لإيمانهم بخالق السموات والأرض [٥، ص١٠٢].

يظهر مما تقدم أن الدراسات التي تنتمي للفئتين الأولى والثانية ضعيفة الصلة بالدراسة الحالية؛ لأن تلك الدراسات لم تبحث في العمليات العقلية. أما الدراسة الأخيرة فهي أشد ارتباطًا بها لأنها بحثت بصورة مفصلة في إحدى العمليات العقلية.

لكن ما تمتاز به الدراسة الحالية — والتميز هنا لا يستتبع الأفضلية — هي أنها هدفت إلى تحديد العمليات العقلية كافة ولم تغفل أيًا منها. ثم إنها اهتمت بإيجاد ترتيب متدرج لهذه العمليات بحيث تأتي أكثر العمليات العقلية شيوعًا في القاعدة، وأكثرها دقة وأعلاها مرتبة في قمة التنظيم. ولم يسبق أن عنيت دراسة سابقة بإيجاد مثل هذا التنظيم أو الترتيب للعمليات العقلية في القرآن الكريم.

رابعًا: الإدراك الحسي

من خصائص الطفل أنه يأتي إلى هذا العالم وهو لا يعلم شيئًا عن العالم الذي يحيط به لقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، لكن الوليد الإنساني يتعرض لمثيرات حسية منذ ساعاته الأولى. وقد تفضل الخالق سبحانه وتعالى على الإنسان وأنعم عليه فركب فيه الحواس التي تعينه على إدراك ما يجري حوله؛ إذ تنقل الحواس المثيرات إلى الدماغ فتحدث العملية الإدراكية الحسية، ولهذا نجد القرآن الكريم يستخدم السمع والبصر بمعنى العقل. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧]؛ ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

فالآية الأولى تبين أن الذين يسمعون هم الذين يدركون حقيقة الليل والنهار وأنهما من مخلوقات الله سبحانه وتعالى. ومن المعروف أن العين هي التي تشاهد النور والظلمة. واستخدام الفعل يسمع بدلاً من الفعل ينظر أو يشاهد في هذه الآية يدل بوضوح على أن السمع عملية إدراكية لا مجرد نقل للأحاسيس. أما الآية الثانية فتستخدم الفعل انظر

للدلالة على التعامل مع آيات الله في السماء والأرض. من هنا فإنه يمكن القول إن القرآن الكريم قد استخدم مصطلح السمع ومصطلح البصر للدلالة على العقل. وبما أن السمع والبصر وسائر الحواس الأخرى هي بمثابة النافذة التي تدخل المعرفة الإنسانية من خلالها إلى الدماغ؛ فإن العملية العقلية التي تشير إليها هاتان الآيتان هي العملية الإدراكية الحسية. فالإدراك الحسي هو أول العمليات العقلية التي يقوم بها الإنسان. فالسمع والبصر وسائر الحواس لها ارتباط وثيق بأولى العمليات العقلية، وهي العملية الإدراكية الحسية. ولا تتم عملية الإدراك الحسي إلا إذا كان هناك واقع محسوس، وحواس تنقل الواقع المحسوس إلى الدماغ.

يوجه القرآن الكريم الإنسان لإدراك عالم الأشياء الذي يحيط به من مياه ورياح ونباتات وجبال وبحار وأنهار، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤]. هذه الآية الكريمة تحث الإنسان على أن يفكر في البرق والغيث الذي ينزل من السماء فيؤدي نزوله إلى بث الحياة في النباتات التي تكتسي بها الأرض. وهذا التفكير يتطلب أن يدرك المرء حقيقة هذه الأشياء فيعرف خصائص الماء والنبات ومدى حاجة كل نبات إلى المياه. لذا فإن القرآن الكريم يعجب من أولئك الذين يرون من تتقدم بهم السن ولا يدركون أن تراجع قواهم دلالة على أن الإنسان مآله إلى الموت لا محالة.

إن الإدراك السليم ينطوي على معرفة دقيقة لخصائص الأشياء التي يدركها. فالأصنام أشياء جامدة لا حياة فيها أي أنها لا تنفع ولا تضر. والذي يشاهد الأصنام ثم يصر على عبادتها لم يقم بالعملية الإدراكية على الوجه الصحيح. ولهذا يندد القرآن بالكفار الذين يعبدون الأصنام في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

وللسبب ذاته رفض القرآن الكريم مقولة قوم إبراهيم عليه السلام لأنهم عبدوا ما لا ينطقون. فالذي لا ينطق لا يستحق أن يعبد.

والنفس الإنسانية هي المجال الثاني للعملية الإدراكية. ويوجه القرآن الكريم الإنسان إلى إدراك مراحل النمو التي يمر بها الإنسان وهي مرحلة ما قبل الولادة ومرحلة

الطفولة ومرحلة الرشد ومرحلة الشيخوخة. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]. فالإنسان الذي يعقل هو الذي يدرك خصائص كل مرحلة من مراحل النمو، ويقارن بين خصائص الإنسان في كل مرحلة بخصائصه في المراحل الأخرى. وفي هذا دعوة إلى علماء النفس المسلمين لدراسة السلوك الإنساني دراسة علمية تقوم على الملاحظة الدقيقة.

والقرآن لا يتحدث عن الإنسان الفرد الذي يعيش منعزلاً عن غيره، بل يتحدث عن الإنسان الذي يعيش في مجتمع. ويهتم القرآن بإدراك البعد الاجتماعي للإنسان ويحث المرء على السير في الأرض وملاحظة آثار المجتمعات الإنسانية. فالمجتمع الإنساني كالكائن الحي ينمو ويقوى ثم يضعف ويزول، كل ذلك وفق قوانين محددة. ويجدر بالإنسان أن يدرك حقيقة المجتمعات الإنسانية الماضية لمعرفة ما حلّ بها. والآيات القرآنية العديدة التي تحث على السير وتوبخ من لا يفعلون ذلك ترسي قواعد المنهجية العلمية السليمة القائمة على الملاحظة الدقيقة.

يظهر مما تقدم أن القرآن الكريم يطالب الإنسان بإدراك عالم الأشياء الذي يحيط به وإدراك النفس الإنسانية والسلوك الذي يصدر عنها وإدراك آثار المجتمعات الإنسانية. واستخدم القرآن أفعالاً عديدة للدلالة على هذا الإدراك منها: يعقل، انظر، ينظر، سيروا، يسمع. والتربية التي تستجيب لهذه التوجيهات القرآنية تحرص على تنمية روح الملاحظة وحب الاستطلاع، وتوفر للطلبة الفرص التي تمكنهم من المقارنة بين الأشياء الماثلة في الموقف التعليمي، وتخطط للرحلات التعليمية الهادفة.

خامسًا: الإدراك المعنوي

إن الله سبحانه وتعالى الذي أنعم على الإنسان بالسمع والبصر امتنّ عليه كذلك، وعلّمه تسمية الأشياء لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. وهكذا أصبح الإنسان قادرًا على التعامل مع الرموز، أي أن الإنسان لا يحتاج بالضرورة إلى رؤية جبل أحد على سبيل المثال، كي يدرك حقيقته بل قد يفعل ذلك عن طريق قراءة نص يتضمن حقائق معينة عن ذلك الجبل. وهذه الخاصية وضعت تحت تصرف الإنسان

الخبرات المحسوسة التي مرَّ بها أفراد إنسانيون غيره. فالتجربة البشرية الماضية التي وصلت إلينا عن طريق الكتابة ميدان رحب من ميادين العملية الإدراكية. فالإنسان الذي يقرأ القرآن الكريم مطالب بإدراك المعاني المتضمنة في آياته. وهذا الإدراك المعنوي على جانب كبير من الأهمية؛ إذ إنه يضيف إلى الإدراك الحسي معينًا لا ينضب من الحقائق والمبادىء والنظريات. والله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال للناس لكي يعقلها من هو قادر على ذلك [انظر العنكبوت: ٤٣] وتربط إحدى آيات سورة النور بين العقل وآداب الاستئذان مما يعني أن الإنسان المسلم مطالب بإدراك هذه الآداب وفهمها [انظر النور: ٦١]. وتبين إحدى آيات سورة الأنعام أن الذين يعقلون هم الذين يدركون الحلال والحرام، أي الذين يميزون بين أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه [انظر الأنعام: ١٥١]. وتبين إحدى آيات سورة يونس عليه السلام أن الكفار كذبوا بنبوة محمد ﷺ لأنهم زعموا أن الرسول قد انتحل القرآن الكريم. وقد بينت الآية الكريمة أن فشل عملية الإدراك عندهم راجع إلى أنهم لم يتعرفوا صفاته عليه السلام. يقول الحق سبحانه وتعالى. ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]. فمحمد ﷺ لم يعرف عنه في شبابه إلا الصدق، ولم يدع عليه السلام إلى الدين الإسلامي إلا بعد بلوغه الأربعين. ولو كان منتحلاً هذا القرآن لا نتحله أيام شبابه [٦، جـ١١، ص٩٥]. وهذا ما فشل هؤلاء المكذبون في إدراكه.

إن الإدراك المعنوي ينطوي على وجود خاصية أساسية يمتاز بها الإنسان عن الكائنات الأخرى ألا وهي قدرته على التخيل أو التصور. فالمسلم الذي يقرأ الآيات القرآنية التي تصف نعيم الجنة تتكون لديه صورة حية عن هذا النعيم مع أنه نعيم لا تدركه الحواس.

ومن الأفعال الأخرى التي وردت في القرآن الكريم للدلالة على الإدراك الحسي أو المعنوي الفعل فقه والفعل علم. فقد وصف الذين يصرون على تعطيل حاسة السمع بأنهم لا يفقهون [انظر الأنعام: ٢٥]. والكفار لا يفهمون خطاب الله الموجه إليهم فهم قوم لا يفقهون [انظر التوبة: ١٢٧]. والقوم الذين طلبوا العون من ذي القرنين لا يفقهون أحوال غيرهم [٥، جـ١٦، ص١٦]. والإنسان لا يستطيع أن يدرك كيفية تسبيح المخلوقات الأخرى لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾

[الإسراء: ٤٤] فنحن لا نفقه أي لا ندرك كيفية تسبيح الشجر والحجر والمخلوقات الأخرى لأن هذا خارج عن قدرة الإنسان. وأمر المسلمون في إحدى الآيات القرآنية بأن لا يقربوا الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا (أي يدركوا) ما يقولون [انظر النساء: ٤٣].

إن عملية الإدراك الحسي والإدراك المعنوي التي وردت في القرآن الكريم لها خصائص عديدة منها أنها ليست حكرًا على فئة معينة من الناس، فالمؤمنون وغيرهم قادرون على عملية الإدراك. ومما يؤيد وجهة النظر هذه أن القرآن الكريم وصف اليهود بأنهم عقلوا كلام الله [انظر البقرة: ٧٥]. فالمشكلة لديهم ليست في عملية الإدراك بل في الاتجاهات المتأصلة لديهم، فهذه تدخلت فيها بعد وشوّهت ثمرة عملية الإدراك نتيجة للتحريف المتعمد. لذا فقد وصفهم القرآن في آية أخرى بأنهم لا يعقلون [انظر آل عمران: ٦٥] لأنهم أدخلوا عامل التحيز في العملية الإدراكية وزعموا أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًا مع أن التوراة لم تنزل إلا من بعده. فكيف يعقل أن يكون يهوديًا؟

والخاصية الثانية للعملية الإدراكية أنها ترتبط بمعرفة الواقع على حقيقته بلا تزييف أو تحريف. وهذه المعرفة لا يجوز أن تقتصر على أحد جوانب الموقف الذي يتعامل معه المرء. لذا فإن القرآن الكريم يحذر المؤمنين من محبة المنافقين لأنهم يخفون غير ما يظهرون. بقوله الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٨]. فهذه الآية الكريمة تبين أن الذي يعقل لا يكتفي بملاحظة سلوك المنافقين الظاهر بل يحرص على معرفة حقيقة مشاعرهم نحو المسلمين.

أما الخاصية الثالثة للعملية الإدراكية فهي أنها ذات طبيعة متدرجة. صحيح أنها ليست حكرًا على فئة معينة أو جنس معين، لكنها لا تتم إلا إذا كان الفرد مؤهلاً لإدراك هذا الشيء أو ذاك. وتتوقف عملية الإدراك على عوامل عديدة: منها ملاءمة ما يدركه المرء لقدرته العقلية، فإذا كان فوق مستواه تعطلت لديه القدرة على الإدراك. لذا بيّن القرآن الكريم في أكثر من آية أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين كي يتمكن من أُنزل عليهم القرآن من إدراكه. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. فلو أنزل هذا القرآن على العرب بلسان أعجمي لكان ذلك عاملاً من العوامل التي تحول دون إدراك معاني الآيات القرآنية. وقد تكون البيئة الاجتماعية سببًا

في إضعاف عملية الإدراك. فالطالب الذي يعيش في بيئة متخلفة يصعب عليه إدراك أهمية التقنيات الحديثة أو الطريقة التي تعمل بها. وقد كان هذا حال القوم المستضعفين الذين طلبوا نجدة ذي القرنين ضد يأجوج ومأجوج. فبعدهم عن الحياة المتحضرة جعلهم عاجزين عن تحصين بلادهم ضد غزوات القبائل المتوحشة. فجاء ذو القرنين الذي جمع بين العلم والقوة والإيمان وبنى سدًا لحماية المستضعفين من المستكبرين. وقد وصف القرآن الكريم هؤلاء المستضعفين بأنهم ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]. أما الإدراك البشري للطريقة التي تسبح بها المخلوقات الأخرى فغير ممكن لأن العقل الإنساني غير مؤهل لإدراكه. من هنا يظهر أن الإنسان قد يعقل أي يدرك ويكون هذا الإدراك كاملاً، وقد يدرك ويكون إدراكه جزئيًا أي غير كامل، وقد يعجز عن الإدراك عجزًا كاملاً.

سادسًا: التذكر

إن مدة بقاء ثمرة عملية الإدراك لدى الفرد تعتمد على قدرته على التذكر، فهذا ينسى ما أدركه بعد يوم وذاك لا ينسى إلا بعد مرور مدة طويلة. فالتذكر إحدى العمليات العقلية الأساسية التي أكد القرآن الكريم على أهميتها، إذ تكرر الفعل ذَكَرَ ومشتقاته في الآيات القرآنية أكثر من ٢٧٥ مرة. كما أن القرآن ذمَّ عملية النسيان، فالله سبحانه وتعالى لا ينسى بينما الإنسان ينسى وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]؛ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

فمن طبيعة الإنسان قابليته للنسيان. فموسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل نسي الشروط التي اتفق عليها مع الرجل الصالح لقاء السماح له بمصاحبته لأخذ العلم عنه، لهذا طلب منه عدم مؤاخذته على هذا النسيان [انظر الكهف: ٧٣]. والمؤمنون عامة يدعون ربهم أن لا يؤاخذهم على تصرفاتهم الناتجة عن الخطأ والنسيان [انظر البقرة: ٢٨٦] بينما المنافقون والكفار ينسون الحق فيعاقبون يوم القيامة عقاباً شديداً بسبب نسيانهم هذا [انظر الأعراف: ٥١ والتوبة: ٦٧].

أوضح القرآن بجلاء أن الإنسان قادر على عملية التذكر، فهناك عشرات الآيات التي تربط بين الإنسان وبين التذكر، واستخدمت صيغ عديدة للدلالة على إثبات عملية التذكر للإنسان بصرف النظر عن دينه، منها حثه على التذكر باستخدام صيغة الأمر كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا

وَنَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

ومن تلك الصيغ أيضًا استخدام كلمة لعل أو أفلا أو فلولا قبل صيغة الفعل المضارع، وفي هذا دلالة واضحة على قدرة الإنسان على القيام بهذه العملية العقلية. فالله سبحانه وتعالى يحث كل إنسان على تذكر حقيقة المخلوقات التي تحيط به مثل السموات والأرض والفلك التي يركبها والأنعام التي يأكل لحمها ويشرب لبنها وتعاقب الليل والنهار. كما أن الإنسان مطالب بتذكر الحقائق المتصلة بخلقه. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧]. فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئًا مذكورا. وعليه أن يتذكر هذه الحقيقة ليدرك أن الله جلَّت قدرته هو المنعم المتفضل.

والقرآن ميدان آخر من ميادين التذكر، فالله سبحانه وتعالى ضرب للناس الأمثال في هذا القرآن لعلهم يتذكرون، ووصف القرآن الكريم بأنه ذو الذكر [انظر الحجر: ٩] لأنه مشتمل على التذكير [٦، جـ٢٠، ص١١٩]. وتبين إحدى آيات سورة القصص أن الله سبحانه وتعالى أخبر العرب كيف صنع بمن سبقهم من الأمم لعلهم يتذكرون [انظر القصص: ٥١].

وتاريخ الأمم والمجتمعات الإنسانية وما يتصل بأوضاعها الاجتماعية ميدان رابع من ميادين عملية التذكر. وقد وردت كلمة مُدَّكر (وتعني متذكر) في ست آيات من سورة القمر في سياق الإخبار عن الأمم السابقة منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٥١].

وطلب الله سبحانه وتعالى من قوم ثمود أن يذكروا أنهم خلفاء لقوم عاد [انظر الأعراف: ٧٤] وعوقب آل فرعون بنقص ثمارهم لعلهم يتذكرون [انظر الأعراف: ١٣٠]. وحثت إحدى آيات سورة الأنفال الرسول ﷺ على التشديد على الكفار عند قتالهم كي يتذكر من حولهم من الأعراب المعادين للإسلام ما حل بأولئك المكذبين [انظر الأنفال: ٥٧]. وتحث آية كريمة أخرى على تذكر بعض القيم الاجتماعية عند التعامل مع الآخرين، وهذه القيم هي الإحسان إلى اليتيم وإيفاء الكيل والعدل والوفاء بعهد الله [انظر الأعراف: ١٥٢].

يظهر مما تقدم أن مجالات التذكر هي: الأشياء المبثوثة في الكون والنفس الإنسانية والتاريخ الإنساني وآيات القرآن الكريم، وهذه هي المجالات التي يتعلق بها الإدراك بنوعيه: الحسي والمعنوي. فالإنسان إذن قادر على عملية التذكر، فهل يستطيع كل من يدرك شيئًا أو أمرًا معينًا أن يتذكره؟ هل يتساوى المسلم وغير المسلم في عملية التذكر؟

ثمة آيات تتحدث عن نجاح غير المسلم في عملية التذكر، وتشكك آيات أخرى في هذه النتيجة، بينما توضح آيات أخرى فشل الكافر في ذلك. ومن الآيات التي تثبت نجاح غير المسلم في عملية التذكر تلك التي تبين أن أحد الرجلين اللذين سجنا مع يوسف عليه السلام تذكر بعد مدة من إطلاق سراحه ما كان قد أخبره به يوسف عليه السلام في السجن وهو أن يذكره عند الملك [انظر يوسف: ٤٥]. وجاء في آية أخرى مؤمنًا من آل فرعون كان يكتم إيمانه قال لقومه المكذبين إنهم سيتذكرون مستقبلاً صدق ما يكذبون به في ذلك الحين [انظر غافر: ٤٤].

أما الآيات التي تشكك في قدرة غير المسلمين على التذكر فإنها تقرر ذلك باستخدام عبارة «قليلاً ما تذكرون» فالناس قليلاً ما يتذكرون ما أنزل إليهم من ربهم، لذا فإنهم يتخذون معه آلهة أخرى [انظر النمل: ٦٢ والأعراف: ٣]. وكفار قريش قليلاً ما يتذكرون فيزعمون أن القرآن قول كاهن [انظر الحاقة: ٤٢]. ويبدو أن الكفار يفشلون فشلاً ذريعًا في عملية التذكر عندما يكون ميدان التذكر كلام الله. فتلاوة القرآن الكريم التي يقصد بها التذكير تزيد الكفار نفورًا [انظر الإسراء: ٤١]. والمنافقون لا يذكرون ما يحل بهم مع أنهم يفتنون في كل عام أكثر من مرة [انظر التوبة: ١٢٦].

ويستنتج من ذلك أن غير المسلم ينجح في عملية التذكر أحيانًا، بينما فشل أحيانًا أخرى. والآيات التي تتحدث عن فشل غير المسلم تفوق الآيات التي تتحدث عن قدرته على ذلك. فهل هذا هو واقع الحال عن الإنسان المؤمن؟ وإذا كان الأمر خلاف ذلك، فما هي الأسباب التي تجعل التذكر — وهو عملية عقلية — يتأثر بالإيمان بالله سبحانه وتعالى؟

حذّر القرآن المسلمين من الزواج من المشركين لأن هذا يترك آثارًا سيئة على المجتمع. لذا ربطت إحدى آيات سورة النساء بين التذكر وبين اجتناب مصاهرة المشركين [انظر البقرة: ٢٢١]. فالإنسان المسلم يتذكر آثار هذه المصاهرة فيبتعد عنها. وارتبطت علمية

التذكر في آية أخرى ببعض الآداب الاجتماعية وهي الاستئذان من صاحب البيت قبل دخوله [انظر النور: ٧٢].

والإنسان المؤمن الذي يصيب ذنبًا سرعان ما يتذكر عذاب الله فيعود إلى الاستقامة [انظر الأعراف: ٢٠١]. وحثت إحدى آيات سورة البقرة على ضرورة كتابة المعاملات التجارية المؤجلة ليكون ذلك أدعى لعدم ضياع الحقوق. وأمر القرآن الكريم في هذا السياق بضرورة أخذ شهادة رجلين أو رجل وامرأتين حتى إذا ما نسيت إحداهما قامت الأخرى بتذكيرها لقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ويبدو واضحًا بجلاء في هذه الآية أن المؤمن قد يتذكر وقد لا يتذكر ما يعرض له في حياته عند تعامله مع أفراد المجتمع الذي يعيش فيه.

وفي القرآن نوع فريد من التذكر لا يتصف به إلا أولو الألباب. ولب الشيء لغة خالصه وخياره، ولب كل شيء من الثمار داخله، ولب الرجل ما جعل فيه من العقل [١، جـ١، ص٧٢٩]. وقد خصَّ الله سبحانه وتعالى أولي الألباب بالخطاب في قوله تعالى ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[البقرة: ١٩٧]. مع أن الناس كلهم مطالبون بذلك لأن أولي الألباب هم القادرون على النهوض بأوامر الله [٧، جـ٢، ص٤١٢].

إن أولي الألباب قادرون على تذكر آيات القرآن الكريم [انظر ص: ٢٩]، وهم قادرون على تذكر خصائص المحكم والمتشابه بخلاف من في قلوبهم زيغ [انظر آل عمران: ٧]. وهم أيضًا خبراء في معرفة الرجال إذ يتذكرون الفروق الكبيرة بين من يعلمون ومن لا يعلمون [انظر الزمر: ٩]. ويتذكر أولو الألباب أن النبات المخضرَّ مآله إلى الإصفرار والزوال، وكذلك حال الدنيا [انظر الزمر: ٢١]. وهذه الآيات تقرر تفوق أولي الألباب في عملية التذكر؛ إذ تحصر القدرة على التذكر في هذه الفئة المتميزة من الناس، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وحصر التذكر في أولي الألباب دليل واضح على تميزهم عن غيرهم في هذا المجال. وعند تأمل الآيات المتعلقة بأولي الألباب يتبين أن تذكرهم ليس مجرد استرجاع لشيء أو أمر سبق أن أدركوه بعقولهم. بل إن عملية الإدراك لديهم ذات بعد مستقبلي، فهم يتذكرون ما سبق إدراكه، ويؤدي هذا التذكر إلى تغيير في واقعهم وإلى التفكير في مستقبلهم. إن التذكر يؤدي إلى مزيد من خشية الله، لذا كان القرآن الكريم تذكرة لمن يخشى [انظر طه: ٣]، فالتذكر الذي يقوم به أولو الألباب من نوعية مميزة.

وتكمن جودته في الموضوعات التي يتعلق بها والأبعاد السلوكية المترتبة على حدوثه.

نخلص من الشرح السابق المتعلق بعملية التذكُّر أن القرآن الكريم أوضح أن الإنسان قادر على عملية التذكر، كما بين أن الإنسان قادر على التذكر في الدنيا وفي الآخرة. ويستطيع الإنسان المؤمن وغير المؤمن تذكر ما سبق إدراكه، كما أن كلاً منهما قد لا يتذكر. وقد ذمَّ القرآن الكريم الكفار الذين لا يتذكرون بينما امتدح أولي الألباب ورفع من شأنهم. أما السبب في ذلك فهو أن الكفار يفشلون في تذكر القضايا الأساسية بينما ينجح المؤمنون في ذلك. فالقدرة على التذكر موجودة عند المسلم وغير المسلم، ولكن ثمرة التذكر عند المسلم أفضل نوعية من ثمرة التذكر عند غير المسلم.

بما أن الإنسان عرضة لنسيان بعض ما أدركه في وقت سابق فإن التربية مطالبة بإبعاد الطلبة عن عوامل النسيان كي يتذكروا ما سبق تعلمه. ومن العوامل التي تحسن عملية التذكر إعطاء المعلومات الكافية عن الظاهرة التي يتعلمها الطلبة. فالقرآن الكريم يطالب اليهود بأن يتذكروا نعم الله عليهم؛ لذا فإنه يعرض عليهم تلك النعم ويعددها واحدة تلو الأخرى، ومن بين تلك النعم إخراجهم من مصر حيث كانوا مستضعفين وإغراق فرعون وجنوده والمنّ والسلوى وغير ذلك [انظر البقرة: ٤٩]. وكلما كانت المعلومات المتوافرة حول القضية أو الحادثة أكثر كان ذلك أدعى للتذكر. هذا ويشترط لنجاح عملية التذكر أن تكون الأشياء أو الأفكار المدركة سهلة في متناول عقول الطلبة. ويصعب على الطلبة تذكر حوادث أو مبادىء سبق أن تعلَّموها إن كانت تلك فوق مستوى قدراتهم. وهذه الحقيقة تعرضها بوضوح الآية التالية: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]. فالآية تدل على أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن سهلاً واضحًا جليًا، وهذا من شأنه أن يعين على حسن تذكره.

وتنجح التربية في تنمية القدرة على التذكر إذا حالت بين الطلبة وبين العوامل التي تؤدي إلى النسيان، سواءً أكانت تلك العوامل مادية أم نفسية. وتختلف هذه العوامل باختلاف طبيعة الأشياء أو الأفكار التي يتعلق بها التذكر واختلاف الأفراد والبيئة التي يعيش فيها المتعلم. وتبين إحدى آيات سورة المؤمنون أن استخفاف الكفار بالمؤمنين وازدراءهم لهم والضحك منهم كان العامل الأساس الذي جعلهم ينسون ذكر الله. فالحالة النفسية المعادية لموضوع معين تحول دون تذكره. لذا كانت العناية بالجانب النفسي للمتعلم قضية جديرة

بالعنـاية والـرعـاية . فالمعـرفة العقلية لا تتم بمعزل عن حالة المتعلم النفسية ؛ والمربون مطالبون بتقصي العوامل التي تجعل الطلبة يعرضون عن تذكر العلم النافع .

ومن العوامل الأخرى التي تعيق عملية التذكر عامل الزمن ؛ فمرور الوقت يضعف قدرة الفرد على تذكرما سبق تعلمه . يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان : ١٨] فهذه الآية تبين أن المكذبين نسوا الذكر لأنه طال عليهم العمر، فانقضاء الوقت بعد موت الرسل هو أحد أسباب نسيان ما أنزل عليهم [٧، جـ١٣ ، ص١١]. وتستطيع التربية معالجة هذا العامل من خلال حث الطلبة على الاستفادة من أوقاتهم . فالوقت قد يكون عاملاً من عوامل التعلم عند الطالب الذي يحسن استغلاله ، وقد يكون عاملاً من عوامل النسيان إن أساء الطالب التعامل معه . وقد حذر الرسول ﷺ من إضاعة الوقت فيما لا طائل تحته . وقد صح عن النبي ﷺ قوله : (لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيما فعل) [٨ ، جـ٤ ، ص٣٦] . وانسجامًا مع هذا الحديث الشريف فقد حرص السلف الصالح على أوقاتهم واستثمروها في التعلم والتعليم . وروي أن أبا يوسف القاضي (توفي عام ١٨٢هـ) بَاحَثَ وهو في النزع الأخير بعض زائريه في مسألة فقهية رجاء أن ينتفع بها طلبة العلم . وكان ابن جرير الطبري يكتب كل يوم أربعـين ورقـة مدة أربعـين عامـاً لأنـه كان يحسن تنـظيم وقته [٩، ص ص٢١-٣٢]. فالـتربية قادرة على استثمار الوقت بصورة أفضل عندما تغرس في الطلبة اتجاهات إيجابية نحو هذا العامل وتختار الوقت الملائم للتعلم . والترف عامل ثالث يعيق عملية التذكر لقوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر : ٨] .

ففي حالة الترف الزائد أو الرفاهية تنشط العوامل المعادية لعملية التعلم ويصاب العقل بحالة من الترهل تقعده عن تذكر التعلم السابق . لذا لم يذكر الترف في القرآن إلا في باب الـذم . فالمـترفـون يكذبون بالله وهـم يقودون مجتمعاتهم التي تسمح لهم بهذه الحياة الفارغة نحو الهاوية . ومن أبرز أولويات الجهد التربوي في كل بلد إسلامي أن يرسخ مفهوم العمل الجاد وأن يلغي كل عامل يغذي حياة الترف والدعة والتراخي .

سابعًا: القيـاس

إن الفرد الذي يدرك ويتذكر مؤهل للقيام بعمليات عقلية أخرى أكثر رقيًا وأسمى منزلة، ويأتي القياس في مقدمة هذه العمليات. وجاء في *لسان العرب* أن قياس الشيء يعني تقديره على مثاله [١، جـ٦، ص١٨٧]. ويعرفه علماء الأصول بأنه أخذ حكم الفرع من الأصل [١٠، ص٢٨٥] أو «إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه للاشتراك بينهما في علة الحكم» [١١، ص٢١٨]. ويقصد بالقياس باعتباره عملية عقلية مقارنة موقف أو شيء بموقف معلوم يماثله أو يناقضه في جانب أو أكثر، أو محاولة فهمه في ضوء مبدأ أو قاعدة عامة تنطبق عليه.

ورد في القـرآن الكريم أمثلة عديدة على قياس التماثل منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وهذه الآية نزلت بسبب وفد نجران الذي قدم إلى النبي ﷺ، وقد غضب أعضاء الوفد عندما أعلمهم النبي أن عيسى بن مريم عبدالله ورسوله. فنزلت هذه الآية الكريمة توضح أن خلق عيسى عليه السلام يشبه خلق آدم عليه السلام، إذ إن كلًا منهما خلق من غير أب. ولو جاء تسمية عيسى عليه السلام إلهًا لأنه جاء من غير أب لكان آدم عليه السلام أولى بهذا. وبما أن الله يستحيل في حقه أن يكون له ابن فقد أبان القرآن أن كلًا منهما بشر. ويعقب أحد العلماء على هذه المقارنة فيقول: ولو تأملت في المعنى الجامع بينهما لوجدت أن كلًّا منهما وجد وجودًا خارجًا عن العادة المستمرة وهذا أمر عجيب. ولكن حال آدم أعجب لأنه خالف العادة المستمرة في أمرين: الأول كونه من غير أب والثاني كونه من غير أم [١٢، ص١١١]. فطبيعة المسيح عليه السلام تقاس على طبيعة آدم عليه السلام نظرًا لوجود تشابه بينهما في الطريقة التي خلق بها كل منهما.

ومن الأمثلة على قياس التناقض قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فهذه الآية الكريمة تتضمن مقارنة بين من يتبع الهدى ومن يتبع الهوى. فالذي يتبع الهدى سعيد، وقياسًا على ذلك لابد أن يكون من يتبع الهوى شقيا.

إن قياس التشابه والتناقض ينطوي على مقارنة حالة بحالة أخرى تشبهها أو تخالفها.

وهناك نوع آخر من القياس ينطوي على إلحاق الحالة التي هي موضع التعلم أو الدراسة بفئة يعتقد أن الحالة تنتمي إليها. وعندما تصنف مجموعة من المواقف أو الأشياء في فئة فإن هذا يعني وجود حقائق مشتركة أو قاعدة عامة يمكن أن تنطبق على سائر أفراد الفئة. وفي هذا النوع من القياس يتم انتقال العقل البشري من الكل إلى الجزء أي أنه يطبق على الحالة الفردية ما صحَّ تطبيقه على الكل. فإبراهيم عليه السلام رغب في تعليم قومه طريق الإيمان فوافقهم جدلاً على اتخاذ الكوكب إلهًا. وعند غياب الكوكب أعلن أمامهم أن هذا لا يصح أن يعبد لأن كل ما يتصف بالأفول أي الزوال لا يستحق العبادة. فرفض عبادة الكوكب تم بناءً على إلحاق هذه الفردية بقاعدة كلية معلومة. وبالطريقة ذاتها أعلن إبراهيم عليه السلام أن كلًّا من الشمس والقمر لا تستحق أن تعبد. لنقرأ معًا الآيات البينات من سورة الأنعام التي تبين هذا النوع من القياس. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩]. هذه الآيات تبين أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم أن ربه دائم لا يزول. وانطلق من هذه القاعدة ليناظر قومه ويبين لهم بطلان ما يعبدون من كواكب ونجوم. فبين لهم أولاً أن الزهرة لا تصلح لأن تكون إلهًا لأنها تغيب عن الأنظار أي تختفي. ثم انتقل بعد ذلك للقمر والشمس وأبطل ألوهيتهما وأعلن عبادته لله وحده لا شريك له [٦، جـ٧، ص ص٢٤٧-٢٥٠]. فالقياس في هذه الآيات يؤدي إلى معرفة الحقيقة من خلال حقائق أخرى سبق تعلمها. فالعقل ينتقل في هذا القياس من حكم كلي إلى قضية فردية.

ثامنًا: الاستقراء

إذا كان العقل الإنساني ينتقل في القياس من الكل إلى الجزء، فإنه يسير في اتجاه معاكس في أثناء عملية الاستقراء؛ إذ ينتقل من الجزء إلى الكل. ففي الاستقراء يتفحص العقل الإنساني حالات فردية عديدة ويحللها لمعرفة أوجه التشابه والاختلاف كي يتوصل إلى

حقيقة أو قانون ينطبق على الحالات الفردية التي هي موضع البحث والتمحيص. وبناءً عليه فإن الاستقراء يُعرف على أنه تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام ينطبق عليها جميعًا [١٣، ص١٩٠]. والاستقراء عملية عقلية على قدر كبير من الأهمية، إذ عن طريق الاستقراء توصل العلماء إلى قواعد اللغة وضوابطها وإلى معرفة طائفة من أبواب الفقه الإسلامي. كما كان الاستقراء طريقة فعّالة في العلوم الكونية مثل الكيمياء والفلك وغير ذلك [١٣، ص ص١٩١-١٩٢].

استخدم القرآن الكريم الاستقراء على نطاق واسع؛ إذ عرض لأخبار الأمم الأخرى مثل قوم عاد وثمود وأصحاب الرَّس وقوم فرعون وقوم تُبَّع، وطلب من الإنسان أن ينظر في هذا التاريخ الإنساني ويستخلص العبر المتضمنة. والآيات القرآنية التي تحث على السير ترسي حجر الأساس للطريقة الاستقرائية. ولم يقف الأمر القرآني عند الحث على السير بل أتبع ذلك بالمطالبة بالنظر. فمعظم الآيات القرآنية التي حثت على السير في الأرض حثت كذلك على النظر، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ٧٤]. فالقرآن الكريم يطالب الإنسان العاقل باستخلاص السنن التي حكمت سير التاريخ الإنساني باستخدام الاستقراء.

والآيات الكونية ميدان رحب للعملية الاستقرائية؛ لذا نجد القرآن الكريم يحث الإنسان على النظر في الأشياء ومقارنة بعضها مع البعض الآخر. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]. تبين هذه الآية الكريمة أن قطع الأرض المتجاورة تنبت نباتات مختلفة في النوع والشكل والطعم، فبعضها تكون ذات أصول عديدة في منبت واحد كالرمان، بينما يكون للبعض الآخر أصل واحد، وبعضها يكون حلوًا فيما يكون البعض الآخر مرًا أو حامضًا مع أنها تسقى بماء واحد. فهذه الآية تحث المرء على أن يقارن ما يراه من صنف من النبات بالأصناف الأخرى كي يتعرف على أوجه الشبه والاختلاف. فالله سبحانه وتعالى ميز الأشياء التي خلقها بخصائص خاصة. والبشر مطالبون بإدراك هذا التباين عن طريق الملاحظة والمقارنة. ولابد أن تقود عملية المقارنة إلى إدراك حقائق جديدة. ففي عملية الاستقراء ينتقل الإنسان من الجزء إلى الكل أي: أن ملاحظة الحالات الفردية تمكنه من

استخلاص نتائج عامة تنطبق على كل حالة من تلك الحالات.

يظهر مما تقدم أن القياس والاستقراء عمليتان عقليتان لا غنى عنهما، وهما عمليتان متكاملتان مع أنهما يسيران في اتجاهين متعاكسين؛ ففي القياس ينتقل المرء من الكل إلى الجزء بينما ينتقل في الاستقراء من الجزء إلى الكل. والاستقراء أعلى مرتبة من القياس؛ لأنه يقود إلى اكتشاف القواعد الكلية التي يُعتمد عليها في القياس. إن القرآن الكريم إذ يحثنا علىَ السير في الأرض يطالبنا بأن نستخلص قاعدة عامة أو سنة إلهية تتعلق بمصير المكذبين. وعندما تتضح هذه السنة عند المرء يصبح قادرًا على قياس حال أمة معاصرة بطرت معيشتها، واغترت بما لديها من تقدم تقني. إن الاستقراء عملية ضرورية لفهم الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة. وبما أن الكتاب والسنة يتقدمان على القياس، فإن الاستقراء يحتل مرتبة أعلى من القياس. وهذه الأفضلية للاستقراء لا تستتبع التقليل من أهمية عملية القياس.

تاسعًا: الاستنباط

الاستنباط عملية عقلية تلي عملية الاستقراء مرتبة. والاستنباط لغة يعني الاستخراج. يقال: استنبط مالاً أو علمًا أي استخرجه. والنَّبطُ الماء الذي يأتي من قعر البئر أول ما تحفر [١، جـ٧، ص٤١٠]. وقد ورد الاستنباط في آية قرآنية واحدة هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]. وقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة أن النبي ﷺ كان يبعث السرايا، وكان بعض المنافقين يستخبرون عن أحوال المسلمين فيفشون أسرارهم قبل عودة تلك السرايا. أي أن همَّ هؤلاء كان إشاعة أخبار حروب المسلمين حتى لو كان فيها ما لا يسر وقبل أن يعلمها الرسول ﷺ وأولو الأمر من المسلمين. وقد ندد القرآن الكريم بهذا المسلك وطلب من المسلمين اجتنابه [١٤، جـ١، ص٤٥٦].

ويذكر صاحب كتاب *الأساس في التفسير* أن هذه الآية خاصة بالإشاعات، وما يمس أمن المجتمع الإسلامي، لكن معناها يتعدى هذا المجال. ويرى أن أولي الأمر هم العلماء، لذا استنتج أن الآية تدل على أهمية الاجتهاد. فالمجتهدون لديهم مَلَكاتٌ تعينهم على استنباط الأحكام [١٥، جـ٢، ص١١٣٥]. ويرى الإمام البغوي في الآية دليلاً على جواز القياس، فهناك من العلم ما لا يدرك إلا بالاستنباط وهو القياس على المعاني المودعة

في النصوص [١٤، جـ١، ص٤٥٦]. وهو عند الإمام الطبري استخراج ما كان مستترًا عن أبصار العيون أو معرفة القلوب [٦، جـ٥، ص١٨١]. ويرى سيد قطب أن استنباط الحقيقة يعني استخراجها من ثنايا المعلومات المتناقضة والملابسات المتراكمة [١٦، جـ٢، ص٤٦٨].

وتمتاز عملية الاستنباط عن غيرها من العمليات العقلية السابقة في أنها تدل على الأصالة والابتكار؛ فالذي يستنبط حكمًا أو حقيقة أو نظرية يكون رائدًا في هذا المجال لأنه لم يسبقه إليه أحد. وهذا شرط غير ضروري في عمليتي القياس والاستقراء. وهذه الخاصية المتميزة لعملية الاستنباط مستنبطة من المعنى اللغوي لهذا المصطلح ومن الفئة التي اعتبرها القرآن الكريم قادرة على القيام بالاستنباط. فقد حصر الاستنباط في الآية الكريمة في الرسول ﷺ وفي أولي الأمر. وقد فسر بعض العلماء أولي الأمر بأنهم القادة بينما فسرها آخرون بأنهم العلماء. ولا تناقض في ذلك. فقادة المسلمين زمن الرسول ﷺ كانوا من خيرة الصحابة: أي أنهم كانوا من أعلام العلماء. وتتضمن عملية الاستنباط إدراك عناصر الموقف كافة واستخلاص الحقيقة من بين العناصر التي قد تكون متنافرة أو متعارضة. ومع أن بعض المفسرين ذكروا أن الاستنباط يعني الاستعانة بالقياس إلا أنه لا يوجد ما يدل على أن القياس هو الطريقة الوحيدة الموصلة للاستنباط. فالذي يستنبط يحتاج أيضًا إلى معرفة خاصية كل عنصر من العناصر التي يتكون منها الموقف الماثل أمامه، وهذا يعني أن المستنبط قد يلجأ إلى القياس أو الاستقراء أو إلى كليهما؛ لكن ما يميزه عن كل منهما الجِدَّة في الحقائق التي يتم الوصول إليها. وعلى هذا يمكن تعريف الاستنباط بأنه عملية عقلية تقوم على الاستقراء والقياس وتتميز بالوصول إلى حقائق جديدة لم يسبق اكتشافها من قبل.

عاشرًا: التقويم

أما العملية العقلية التي تلي الاستنباط فهي عملية التقويم. وتتضمن هذه العملية إصدار حكم محدد في القضايا التي يدركها العقل. وإصدار حكم قيمي حول حقيقة أو فكرة معينة عملية معقدة تتضمن إدراك طبيعة الحقيقة ومقارنتها بغيرها وربطها بنظام من القيم يمكن المرء من إصدار حكمه. وقد يصل المرء إلى اكتشاف حقيقة أو موقف عن طريق الاستقراء أو الاستنباط، لكنه قد لا يدرك قيمة تلك الحقيقة أو ذلك الموقف إلا إذا أضيفت

إلى عملية الإدراك معايير تعين على تقويم تلك الحقيقة. ونقرأ في إحدى آيات سورة الأنبياء أن كلًّا من داود وسليمان عليهما السلام أوتي حكمًا وعلمًا. وعندما عرضت عليهما قضية صاحب الحرث الذي نفشت فيه غنم رجل آخر قضى داود عليه السلام بالغنم لصاحب الحرث على حين حكم سليمان عليه السلام بأن تعطى الغنم لصاحب الحرث وتبقى معه يتصرف بما تنتج حتى يسترد قيمة ما أتلفته الغنم وعندئذ تعود إلى صاحبها. ويذكر صاحب *الكشّاف* أن كلًّا من داود وسليمان عليهما السلام كان على صواب، لكن حكم سليمان عليه السلام كان هو الأصوب [١٧، جـ٢، ص ص٥٠-٥١]. وهذا واضح من ثناء القرآن الكريم على فهم سليمان في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]. فالفهم الذي تشير إليه الآية الكريمة ليس مجرد عملية إدراكية بل هو إدراك لعناصر القضية ومقارنة الأضرار الناتجة عن رعي الغنم الزرع وإصدار حكم عادل لا ظلم فيه. وهذه عملية لا يقوم بها إلا كل ذي حظ عظيم.

حادي عشر: التفكر

العملية العقلية التي يُعلي القرآن من قدرها ويضعها في قمة هرم العمليات العقلية هي التفكر، ويمكن تعريف التفكر بأنه العملية العقلية التي تمكن الفرد العبور من العالم المحسوس إلى خالق هذا العالم فيؤمن بأن لا إله إلا الله ولا رب سواه. ويطلق الحارث المحاسبي على هذه المرحلة من التفكير العقل عن الله. وأولوا الألباب هم الذين يمتازون بالقدرة على التفكر في خلق السماء والأرض، وهم الذين يستفيدون في عملية التفكر من خبراتهم السابقة وإدراكاتهم الحسية للمخلوقات التي يتفكرون فيها، ولكنهم يضيفون إلى ذلك عاطفة جيَّاشة وخشية صادقة لله سبحانه وتعالى. وعندئذ تصبح خشية الله جزءًا من حياة الإنسان، ويعتبر كل ما يراه محركًا للتأمل؛ فيصل إلى مرحلة الشهود؛ إذ يرى كل شيء بيد الله خاضعًا لإرادته [٥، ص ص٣٢-٢٢٥].

ومن أبرز خصائص عملية التفكر إذن أنه لا يصل إليها إلا المؤمن، والقرآن لم يشر إلى نجاح غير المؤمنين في هذه العملية العقلية في أيٍّ من آياته. وأما الخاصية الثانية فهي أن التفكر عملية ذات صبغة شمولية. فأولوا الألباب الذين امتدحهم القرآن الكريم يتفكرون في خلق السموات والأرض، وهم لا يكتفون بالتفكر في جوانب محدودة من خلق الله بل

يفكرون فيها كلها. ومن الظواهر الكونية والأشياء والنباتات التي ارتبطت بالتفكر في القرآن الكريم الجبال والأنهار والليل والنهار والثمار [انظر الرعد: ٣] والعسل الذي يخرج من النحل [انظر النحل: ٦٩]، والزيتون والنخيل والأعناب [انظر النحل: ١١] وكل ما سخره الله للإنسان في السموات والأرض [انظر الجاثية: ١٣]. وطالب القرآن بالتفكر في ظاهرة النوم ومقارنتها بظاهرة الموت [انظر الزمر: ٤٢] وبالتفكر في القرآن الذي أُنزل هدىً للناس [انظر النحل: ٤٤] وفي صدق محمد ﷺ وبُعْدِهِ عن الجنون [انظر سبأ: ٤٦]. وإذا كان القرآن قد حث على التفكر في المخلوقات كلها فإنه لا يصح القول بأن لا قيود على مجالات التفكر؛ فالإنسان مطالب بعدم التفكر في كيفية طبيعة ذات الله سبحانه وتعالى أو صفاته الحُسنى التي لا مجال للعقل أن يدركها. ومخلوقات الله كلها لا طبيعة ذات الله هي المجال الذي يقع عليه التفكر [١٩، ص ص٥٩-٦٠]. ولـذا تكـون الأشياء التي تملأ هذا الكـون، والنفس الإنسانية، والقرآن الكريم وما تضمنه من حكمة، وصدق رسالة محمد ﷺ، وحقيقة الدنيا والآخرة هي مجالات عملية التفكر. وهي بهذا تكاد تتطابق مع مجالات عملية الإدراك بشقيه الحسي والمعنوي.

أما الميزة الثالثة لعملية التفكر فهي أنها تشتمل على جانب قلبي. فالذي يتفكر يخشع لله سبحانه وتعالى. فالعلماء الذين يتفكرون هم أكثر خشية لله من الأفراد العاديين. وثمة علاقة متبادلة بين التفكر والإيمان. فالذي يتفكر يزداد إيمانًا، والإيمان يؤدي بدوره إلى ازدياد عملية التفكر.

مادام التفكر ذروة سنام العمليات العقلية، فإن التربية لا تستطيع تجاهله، ويصبح لزامًا على المربين بذل أقصى الجهود التربوية الملائمة لنمو عملية التفكر. وهذا يتم من خلال التـأكيد على الجـانب الإيماني. فالإيمان الذي يمتدحه القرآن هو الإيمان القائم على حسن التفكر فيما خلق الله سبحانه وتعالى. وهذه الثمرة لا يمكن الحصول عليها إلا إذا اعتنت التربية بسائر العمليات العقلية التي سبق شرحها. وبما أن عملية التفكر تشمل سائر المجالات إلا التفكر في ذات الله فلا يستطيع أحد أن يزعم بأن التفكر حكر على محتوى دراسي معين دون غيره. ويمكن أن توظف التربية المقررات الدراسية جميعها وأن تسخر عناصر المنهاج كلها لتنمية عملية التفكر عند الطلبة، لأن التفكر هدف تربوي أساسي يسهم في تحقيقه محتوى المنهاج المقرر في كل فرع من فروع المعرفة التي تدرس في المؤسسات التربوية.

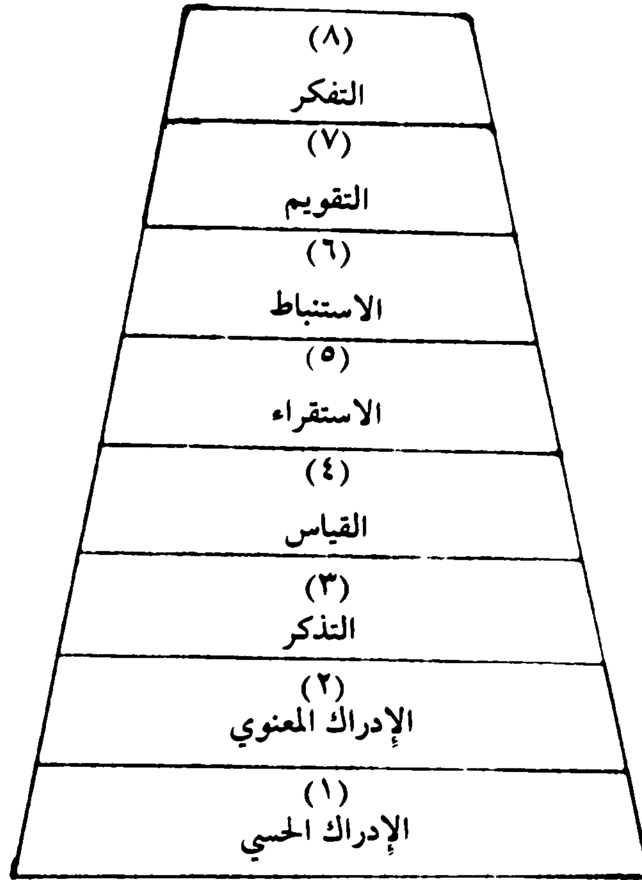
وللطريقـة التربوية دور لا غنى عنه في عملية التفكر؛ فالمدرس الذي لا يهتم إلا بالحفظ الأصم يصيب التفكـر إصـابـة قاتلة؛ والمعلم الـذي يهيء للطلبـة جوًا يسـوده الاطمئنان النفسي، يزيد من القدرة على التفكر. وبالمقابل فإن المعلم الذي يحيط الطلبة بجو من الحزن والضيق يضعف هذه العملية، ولعل هذا هو الذي جعل الرسول محمدًا ﷺ يستعيذ من الهم والحزن [٥، ص ص٨٤-٨٥].

والتربية التي تحرص على تنمية عملية التفكر تشجع الطلبة على التعلم عن طريق الملاحظة والاكتشاف كما تشجعهم على حب الاستطلاع، وهي تحارب مرض الإلفة الذي يصيب العقل بالخمول ويبعده عن البحث في القضايا والأشياء التي تعرض عليه. ويبدو أن تكـرار مشـاهـدة ظاهـرة معينـة يفقـد تلك الـظاهرة عظمتها ويحجب العقل عن إدراك خصـائصها. ويرى مالك بدري أن هذا كان أحد الأسباب التي أدت إلى تخلف العلوم الإنسانية لأن إلفة الإنسان للإنسان جعله لا يهتم بدراسة النفس الإنسانية بذات الدرجة التي اهتم بها بالأشياء [٥، ص ص٨٨-٨٩].

وتستطيع التربية تنمية التفكر من خلال عملية التقويم. فالتقويم يكون صادقًا عندما يقيس ما يراد قياسه. وليس من الحكمة في شيء أن تؤكد التربية على التفكر ثم تلجأ إلى استخدام أساليب قاصرة في التقويم: كأن تستخدم اختبارات تقيس القدرة على الحفظ الأصم أو تعتمـد الإجابة عنها على الحدس والتخمين، وهذا يستدعي بذل جهود كبيرة لتحسين عملية التقويم التربوي، وأيُّ خلل في محتوى المنهاج أو طريقة التدريس أو طريقة التقـويم يؤثر سلبًا في الهدف التربوي مهما كان ذلك الهدف ساميًا. لذا فإن تحقيق هذا الهـدف المثـالي وهـو تنمية القدرة على التفكر يعتمد على النجاح في حسن اختيار محتوى تعليمي ملائم ينفذ بطرق تدريس ملائمة ويقوَّم بطرق تقويم ملائمة.

ثاني عشر: الخاتمة

لقد تم في هذا البحث تحديد ثماني عمليات عقلية هي الإدراك الحسي، والإدراك المعنوي، والتذكر، والقياس، والاستقراء، والاستنباط، والتقويم، والتفكر، كما يظهر في الشكل التالي:



إنَّ العمليات العقلية الموضحة في هذا الشكل الهرمي ذات طبيعة متدرجة. والتفكر أعلاها مرتبة والإدراك الحسي أدناها مرتبة. ومعنى هذا أن الشخص الذي ينجح في القيام بأي من هذه العمليات العقلية قادر على النجاح في العمليات العقلية التي تأتي دونها في هذا الترتيب الهرمي، والعكس غير صحيح بالضرورة. فالقادر على التفكر قادر أيضًا على التقويم والاستنباط والاستقراء وسائر العمليات العقلية الأخرى. أما القادر على التقويم فيكون قادرًا على الاستنباط والاستقراء لكنه قد يكون قادرًا على التفكر وقد لا يكون. ومعنى ذلك أن الإدراك هو القاعدة العريضة التي ترتكز عليها العمليات العقلية؛ لذا وجب على التربية أن تستجيب للتوجيهات القرآنية وأن تعنى بدراسة الآيات الكونية والآيات في الأنفس وفي كتاب الله سبحانه وتعالى. وعلى التربية أن تبدأ بعالم المحسوسات ثم تنتقل بعد ذلك إلى المفاهيم المجردة. وترتكب التربية خطأً قاتلاً عندما تدرس الطلبة المفاهيم في معزل عن العالم المحسوس الذي اشتقت منه؛ كما ترتكب الخطأ ذاته عندما تبدأ بتدريس الطلبة الأشياء المحسوسة ثم تصر بعد ذلك أن هذا العالم المحسوس هو نهاية المطاف. فالعقل،

من منظور قرآني لا يصل إلى كمال رشده إلا إذا اتخذ من العالم المحسوس وسيلة للاهتداء لخالق هذا العالم. إنه يرفض أن يظل أسير الأشياء التي تحيط به. فهو يدرك هذه الأشياء ويؤمن بالإله الذي خلقها ويتصرف في حياته في ضوء هذه الحقيقة. قال تعالى﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ* ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]. صدق الله العظيم.

المراجع

[١] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. *لسان العرب*. بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

[٢] غرديه، لويس. *فلسفة الفكر الديني*. تعريب صبحي الصالح وفريد جبر. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٧م.

[٣] المنجد، صلاح الدين. *الإسلام والعقل*. ط٢. بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٦م.

[٤] عبدالله، عبدالرحمن صالح. *ابن الجوزي وتربية العقل*. مكة المكرمة: شركة مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

[٥] بدري، مالـك. *التفكر: من المشاهدة إلى الشهود*. المنصورة: دار الوفاء، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

[٦] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. *جامع البيان عن تأويل آي القرآن*. بيروت: دار الفكر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

[٧] القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري. *الجامع لأحكام القرآن*. ط٣. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

[٨] الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة. *سنن الترمذي*. تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف. بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

[٩] أبو غدة، عبدالفتاح. *قيمة الزمن عند العلماء*. حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

[١٠] الخبازي، جلال الدين عمر بن محمد. *المغني في أصول الفقه*. تحقيق مظهر بغا. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

[١١] أبو زهرة، محمد. *أصول الفقه*. القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت.

[١٢] العبدلي، الشريف منصور. *الأمثال في القرآن الكريم*. جدة: عالم المعرفة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

[١٣] الميداني، عبدالرحمن حبنكة. *ضوابط المعرفة*. دمشق: دار القلم، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

[١٤] البغوي، الحسين بن مسعود. *تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل*. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

[١٥] حوّى، سعيد. *الأساس في التفسير*. القاهرة وحلب وبيروت: دار السلام، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

[١٦] قطب، سيد. *في ظلال القرآن*. ط٧. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

[١٧] الزمخشري، محمد بن عمر. *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. القاهرة: المكتبة التجارية، ١٣٥٤هـ.

[١٨] المحاسبي، الحارث بن أسد. *العقل وفهم القرآن*. تحقيق حسين القوتلي. ط٢. بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

[١٩] النبهاني، تقي الدين. *التفكير*. عمان: حزب التحرير، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

Mental Processes in the Holy Qur'an and their Educational Implications

Abdul-Rahman S. Abdullah
Associate Professor, Department of Curriculum and Instruction, Faculty of Education and Islamic Studies, Sultan Qaboos University, Muscat, Sultanate of Oman

Abstract. This study aimed to examine the major mental processes in the Holy Qur'an and to identify their educational implications. Eight mental processes were identified:

(1) Sensory perception.
(2) Cognitive perception.
(3) Remembering (*tadhakkur*).
(4) Analogy (*qiyas*).
(5) Deduction (*istiq'ra'*).
(6) Induction (*istinbat*).
(7) Evaluation (*taqwim*).
(8) Reflection (*tafakkur*).

These processes could be arranged in a pyramid-like manner where sensory perception lies at the bottom of the pyramid and *tafakkur* lies at its top. The very last process in the Holy Qur'an is confined to believers in Allah. Non-believers can never reach the stage of *tafakkur*. Education should aim at developing thinking at all levels. The content of the curriculum, methods of teaching and methods of evaluation should be geared towards achieving this aim.